سلسلة رحلات ابن بطوطة

العدد ٥

ابن بطوطة فى بلاد العجائب

نوال مهنى

الناشر

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبده غريب

الكتـــــاب :سلسلة رحلات ابن بطوطة
المـــؤلـــف : أ. نوال مهنى
تاريخ النشر : ١٩٩٩م

الناشـــــر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
عبده غريب
شركة مساهمة مصرية

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز – عمارة برج آمون
الدور الأول – شقة ٦
ت ف : ٢٤٧٤٠٣٨ ، ت : ٢٤٦٢٥٦٢
التوزيـــــع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)
ت : ٥٩١٧٥٣٢ ص. ب : ١٢٢ (الفجالة)
المركز الرئيســى : مدينة العاشر من رمضان
المنطقة الصناعية (C1)
ت: ٠١٥/٣٦٢٧٢٧ ص.ب : ١٢٢ (الفجالة)
رقــم الإيـــــداع : ٩٩/٢٣٧٨
الترقيــم الدولــى : ISBN
977-303-085-7

ابن بطوطة وبداية الرحلة

قرر أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الطنجى الشهير بابن بطوطة القيام برحلة طويلة لزيارة البلاد ومعرفة أخبار العباد وأقنع والديه بأنه مسافر لأداء فريضة الحج فسمحا له وخرج من بلدته طنجة بالمغرب قاصداً مكة. وحين خرج ابن بطوطة للرحلة لم يكن معه سوى بضعة دنانير وفى عصره كانت الزوايا والتكايا تعطى بلاد العالم الإسلامى فكان ينزل ضيفا عليها وعلى الأولياء والمشايخ وأصحاب الطرق الصوفية فكانوا يستضيفونه ويرحبون

به. وفى عصر ابن بطوطة لـــم يكـــن النـــاس يسافرون إلا للأمور الهامة مثل الحج والتجـارة ولم يكن السفر للسياحة والرحلات أمراً شـــائعا أو سائغا. ولكن ابن بطوطة كان يهوى الســـفر والتجوال وكان شخصية ظريفة طريفة بمقاييس عصره. واستمرت رحلته خمسة وعشرين عاما وبلغ طولها مائة وأربعين ألفا من الكيلو مترات زار خلالها معظم بلدان العـــالم القديـــم ورأى خلالها من العجائب والغرائب ومن الطرائـــف واللطائف ما لم يره غيره وتعلم خلالـــها عـــدة لغات وتعرض للهلاك عشرات المرات، ولكنـــه نجا بفضل قوة صحته لم ينظم ابـــن بطوطـــة

رحلته على أساس جغرافى فلا فرق عنده بين بلد وآخر ولم يشغل نفسه بالعمل أو التجارة ولكنه تفرغ للسياحة والمشاهدة فكانت رحلته دينية اجتماعية ولم تكن من أجل كشوف جغرافية أو بحوث علمية. وكان عمر ابن بطوطة وقت خروجه للرحلة اثنين وعشرين عاما وحينما عاد قابل سلطان البلاد فأكرمه وأعجب بأخبار الرحلة وأمره بتسجيلها، وحين انتهى من كتابتها أسماها (تحفة النظار فى غرائب الأمصار) فعهد السلطان إلى وزيره عبد الله بن جزى وكان كاتبا أديبا بصياغة الرحلة بأسلوب أدبى وتهذيبها ففعل. وكان زمن

الرحلة القرن الرابع عشر الميــلادى، ويعتــبر ابن بطوطة رحالة العرب والإسلام فى العصــو الوسيط ولا زالـــت أخبـــار رحلتـــه العجيبـــة المدهشة تشغل العالم حتى الآن فهيا بنا نطـوف معه ونتابع رحلته.

المؤلفـــــة

نوال مهنى

ابن بطوطة فى بلاد العجائب

سمع صديقنا ابن بطوطة كثيراً عن بلاد العجائب وهى بلاد بعيدة قاصية والطريق إليها يحتاج إلى جهد ومشقة ونصحه أصدقاؤه بعدم الذهاب إلى هذه البلاد الغريبة النائية التى لا يعرف لغة أهلها ولا يعرف فيها أحدا.

وكان ابن بطوطة يهوى المغامرة ولا يخشى المخاطر كما أن حبه للسفر والسياحة جعله يصمم على السفر مهما كانت المتاعب.

وعبر ابن بطوطة النهر إلى الشمال وسأل رفاقه عن اسم هذا النهر فقالوا له إنه نهر السند.

نزل ابن بطوطة أراضى الهند وكان هـــذا السلطان يكرم الغرباء ويرحب بهم وينعم عليهم بالأموال والهدايا وبعد أن عرف قصـــــة ابـــن بطوطة وحبه للرحلات سمح له بالسفر علـــــى سفينته السلطانية الفاخرة فركب وسارت السفينة فى النهر وحولها أربعة مراكب صغيرة فيــــها الطبول والمطربون وأهـــل الغنـــاء، وبعـــد أن وصل إلى الشاطئ راح يطوف بيـــن غابـــات الهند ويتأمل الأشجار الغربية والفاكهة العجيبـــة التى لا يوجد مثيل لها فى أى بلد آخــــر مـــن العالم مثل جوز الهند والمنجو.

وتعرف ابن بطوطة على أحد الهنود ودعاه إلى طعام الإفطار وقدم له وجبة غريبة تســـمى

الكشرى مكونة من المنجو المطبوخ مــع الأرز وكان طعمها لذيذا، وبعدها زار مسجد القطــب وصلى فيه وهذا المسجد بناه الســلطان قطــب الدين أيبك وله مئذنة عظيمة تسمى قطب منار.

وفى المساء أرسل السلطان رجلا إلى ابــن بطوطة يخـــبره أن الســلطان عينـــه قاضيــا وخصص له أرضا وبيتا وجعل له راتبا يساوى اثنى عشر ألف دينار فى العام.

وفرح ابــن بطوطـــة بمنصـــب القضـــاء وبالأموال ومن هذا اليوم أصبح الرحالة الفقــير قاضيا غنيا فسكن دارا فاخرة وأصبح يمتلـــك الجوارى والخدم، فإذا أراد الذهـــاب إلـــى أى

مكان ركب مركبا مزيّنا وحوله الخدم والمغنون يغنون له طوال الطريق كما يفعل ملوك الهند.

ولاحظ ابن بطوطة أن غالبية أهـل الـهند فقراء لا يملكون شيئاً فكان بعضهم يشـتغلون حمالين لحمل الناس على المحفات.

وكانت المحفة عبارة عن طاولـة خشـبية كبيرة يجلس عليها الشخص ويقوم اثنـان مـن الرجال بحملها على الأكتاف وتوصيل الراكـب إلى أى مكان يريده نظير أجر بسيط جدا.

ورغم أن الشعب كان فقيرا ــ كان الملـوك والسلاطين أغنياء مسرفين وخصوصـا مـع الغرباء، ومن الأشياء الغريبة التى رآها ابـن بطوطة فى بلاد العجائب منظر الساحر الـهندى

وهو يجلس وأمامه ثعبان كبير والساحر ينفـــخ فى المزمار فيتراقص الثعبان علـــــى نغمـــات الموسيقى، وكان الناس يقفون حول الساحر فى حلقات يتفرجون عليه ويدفعـــون إليـــه بعـــض النقود.

ومن عادات أهل الـــهند ركـــوب الأفيـــال واستخدامها فى التنقل.

وكان حكام الهند القدماء وأثرياؤها يزينـــون الأفيال ويلبســـونها العقـــود ويضعـــون علـــى ظهورها السرج الحريرية المزخرفة ويخرجون بها فى مواكب الأعياد وهم يركبون هذه الأفيال ويعتبر ركب المهراجا الهندى أكـــثر المنـــاظر طرافة فهو مثير للدهشة ويدعو للفرجة. وكـــان

المهراجا يركب الفيل المزين وحوله أتباعه من الخدم ويطوفون شوارع المدينة والمهراجا عادة يلبس عمامة كبيرة وملابس مزينة ويلبس العقود والأساور.

وإلى جانب الأفيال تنتشر القرود والنسانيس فى غابات الهند وفوق جبالها وكان الناس يحصلون على جوز الهند بطريقة طريفة جدا فيقومون برمى الطوب والحصى فوق الشجر فتغضب القرود الموجودة على الأشجار وتقوم بقطع جوز الهند ورمى الناس به، ويعتقد القرد أن الانسان الذى يرمى بالطوب يقصد أن يضربه فيقوم برد العدوان ويبادله القذف بجوز الهند حتى تتجمع أعداد كبيرة من ثمار جوز

الهند فيأخذها الرجل ويعود إلى بلده لأكلــها أو بيعها.

قضى ابن بطوطة فى الهند ثمانى ســنوات كاملة حافلة بالأحداث والعجائب وتغيرت حالــه بعد أن كان فقيراً لا يمتلك شيئا وينزل ضيفــا على التكايا والزوايــا والمســاجد والمــدارس أصبح قاضيا غنيًا بفضل الأموال التى وهبها له حاكم الهند السلطان محمد تغلق.

ولكن دوام الحال من المحــال لأن بعــض الحاقدين أغضبه أن يصل ابن بطوطة إلى هـذه المكانة وهذه المنزلة عند السلطان. فذهب إلــى السلطان حاكم المدينة وأخــبره كذبــا أن ابــن بطوطة زار أعداء الملــك وتقــرب اليــهم ـ

ومعنى ذلك أن ابن بطوطة ينوى التعاون مع الأعداء والإضرار بمصالح البلاد والغدر بالسلطان.

وغضب السلطان على ابن بطوطة وقرر عزله عن منصب القضاء وفرض الحراسة على أمواله تمهيدا لمحاكمته ومعاقبته.

وخاف ابن بطوطة من عقاب السلطان فراح يتوسل إلى الله ان يخلص من هذه المحنة وكان يقرأ القرآن ويختمه كل يوم ويقرأ عبارة (حسبنا الله ونعم الوكيل) ثلاثا وثلاثين ألف مرة فى اليوم وهو صائم حتى استجاب الله لدعائه وعفا عنه السلطان وتشاءم ابن بطوطة من

المال وتنازل عن كل أمواله وقرر أن يعـــتزل الناس ويتفرغ للعبادة.

فتعرف على شيخ صالح ولزمـــه يخدمــه وهو مرتاح البال.

وظل مقيما مع الشيخ فى زاويـــة الشـــيخ بشـــــــــــير وهـــــــــــــو زاهد متقشف.

وعرف السلطان أن ابن بطوطـــة كـــان مظلوما وان ما حدث كان وشاية وخدعة مـــن بعض الحاقدين الحاسدين فبعث إليه حتى يعــود إلى الخدمة فرفض العودة، وأرســل الســلطان الرسل لابن بطوطة يخبرونه أن السلطان يريــد مقابلته فذهب اليه وعرف منه أنه يريـــد منـــه

السفر إلى بلاد الصين رسولا عن السلطان لأن ظروف السلطان لا تسمح له بالسفر وفرح ابن بطوطة بالسفر إلى الصين لأنه يحب السفر أولا ولأنه يريد الهروب من الهند بعد ما حدث له فوافق على الفور.

وسأل عن سبب الرحلة فأخبره السلطان أن ملك الصين أرسل إليه معدية مقابل السماح له أن يبنى "معبد بوذى" فى أرض الهند وقبل السلطان الهدية ولكنه اعتذر عن بناء معبد فى أرض الإسلام لأن سلطان الهند مسلم ويعتبر الهند ارضا إسلامية وقرر السلطان أن يرسل هدية إلى ملك الصين ردا على هديته.

واختار السلطان الوفد الذى يحمل الهديـــة برئاسة ابن بطوطة.

وسار الركب فترة ثم توقفـــوا ليســتريحوا فغارت عليهم جماعة من اللصـــوص وقطـــاع الطرق واستمرت الحرب بين الوفد واللصوص حتى قتل بعض أصحاب ابـــن بطوطـــة وفـــر بعضهم واختفى ابن بطوطة بين المزارع وظـل أياما بدون طعام حتى عثر عليـــه اللصـــوص وأخذوه أسيرا، وبعد فترة أطلقوا سراحه. وسار بمفرده بين الجبال لا يجد طعاما سوى النبـــق ويشرب من الآبار حتى كاد يهلك وسقط علـــى الأرض ثم أفاق فوجد أمامـــه رجـــلا صالحـــا يمسك بيده إبريقًا وعكازا ويحمل جرابا علـــى

كتفه. وشرب ابن بطوطة من ماء الإبريق ولـم يستطع السير من شدة التعب فحمله الشيخ علـى كتفه حتى أوصله إلى قرية عامرة حاكمها مسلم فأكرمه وكساه.

وشاهد ابن بطوطة فى أحد القرى مجموعة من السحرة يسمون الجوكية وبلغ من سـحرهم أن الساحر منهم يستطيع أن يتنكر فى سـورة سبع. وشاهد أحدهم وقد جلـس علـى الأرض وتربع ثم أخذ يرتفع إلى أعلى حتى صار أعلى من رؤوس الواقفين وغضـب زميلـه السـاحر فأخرج فردة حذاء وضرب بها الأرض فراحـت ترتفع فى الهواء وتضرب الساحر المتربع وهـو يهبط حتى نزل إلى الأرض مرة أخرى.

وحينما شاهد ابن بطوطة ذلك أغمى عليه من الخوف لولا أن أحد الحاضرين قدم له بعض الدواء فشربه وذهب عنه الخوف.

وهؤلاء السحر كانوا متخصصين في رياضة اليوجا المشهورة وهى رياضة روحية يستطيع صاحبها التحكم فى إرادته ويكتسب قدرة كبيرة على التحمل فيستطيع أحدهم المشى فوق النار دون أن يحترق ويعيش شهورا دون أن يأكل. وعرف ابن بطوطة أثناء إقامته فى الهند أن هذه البلاد الواسعة بها آلاف اللغات ومئات الديانات وبها خليط عجيب من العادات والملابس.

وأشهر الملابس الهندية السارى الذى تلبسه المرأة الهندية، وهو قماش من حرير مزخـرف برسومات ومشغول بالخيوط الزاهيـة وتلفـه المرأة حول جسـمها بطريقـة خاصـة مثـل الملاية.

ولاحظ ابن بطوطة أن تعدد الديانـات لـم يمنع سيطرة الحكم الإسلامى على هذه البلاد.

وبعد أن مر صديقنا ابن بطوطة بكل هـذه الظروف قرر الرحيل من بلاد العجائب أى من الهند وعزم على مواصلة رحلته إلى بلد آخـر ومشاهدة معالم جديدة.

☆ ☆ ☆